

خليل السكاكيني

الكتاب الثالث - اختبار الانتداب وأسئلة الهوية

١٩١٩ - ١٩٢٢

تقديم

ثلاث صفات ميّزت الفلسطيني النجيب خليل السكاكيني (١٨٧٨ - ١٩٥٣) : وطنية حاسمة جعلته حاضراً في الحياة الوطنية في جميع وجوهها، خطيباً ومحرضاً ومبادراً، حتى "بدا زعيماً وهو مقيم في بيته"، كما قال ساخراً في إحدى رسائله إلى ولده سري، حيث حضوره الوطني وعي نقدي، واجه به دعاوى الصهيونية وحلفاءها، والمواقف السياسية الفلسطينية الرخوة، والممارسات والتصورات السلبية، التي تجزئ المجتمع، وتضعف شروط الوحدة الوطنية.

كان السكاكيني مثقفاً تنويرياً بامتياز، انفتح على الثقافة الكونية وقرأ نقدياً موروثه الثقافي العربي ودعا، مبكراً، إلى حرية الرأي وفصل الدين عن السياسة وإلى تحرّر الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، وميَّز بين الهوية الوطنية، التي توحد الفلسطينيين جميعاً، والهويات التقليدية. ولعلّ وعيه التنويري النقدي، هو الذي جعله يدعو إلى "مجتمع مدني"، وأن يعيشه قبل "وصوله"، وأن يمقت التعنت الديني، معترفاً بالفضائل والمثل التي تحاith الأديان السماوية.

آمن مثل غيره من النهضويين العرب، من رفاة الطهطاوي إلى طه حسين وساطع الحصري، بدور المدرسة في إعادة صياغة المجتمع، ففضى حياته في التعليم، داعياً إلى "مدرسة جديدة" تعلّم مبادئ التحرّر الإنساني، قبل أن تعلّم تلاميذها حروف الأبجدية. قال: "لا يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كان مثقفاً"، مساوياً بين الثقافة والقيم الإنسانية، بعيداً عن تصورات ضيقة تختصر الإنسان إلى طبقة أو دينه أو "حمولته".

ومع أن السكاكيني عُني بقضايا اللغة والأدب، وترك فيهما أكثر من دراسة، فقد آثر أن ينصرف إلى كتابة "اليوميات"، معتبراً أنها المجال الأساسي الجدير بالكتابة، وأنها الشكل الأكثر مواءمة للحداثة الكتابية. مزجت يومياته بين الشخصي والوطني والثقافي والسياسي . ولم تكن همومه الشخصية في رسائله جميعاً، إلا مدخلاً لمعالجة قضايا وطنية وقومية وتربوية .

المحرر

مقتطفات من يوميات خليل السكاكيني

يوميات - رسائل - تأملات

الكتاب الثالث - اختبار الانتداب وأسئلة الهوية

١٩١٩ - ١٩٢٢

تحرير: أكرم مسلّم

الفلسطينيون والرابطة العربية

السبت ١٨ ك ٢ غ سنة ١٩١٩ م

كان من رأي أشيل في رسالته الأخيرة أن أتوكل على الله وأذهب إلى مصر، فعزمت أن أذهب في أول فرصة وحدي، وبعد أن أجد شغلاً استدعي سلطانه وسريا. نعم البلاد تحتاج إليّ كما تحتاج إلى كل فرد من أبنائها، وقد أجد في وقت قريب مركزاً حسناً ينطبق على أفكارى ورغائبي وآمالي، إلا أن المعيشة في مصر أوفق من جهات عديدة: (١) ننتقل إلى وسطٍ راقٍ ونستأنف حياة جديدة. نسكن في دار جميلة توفرت فيها أسباب الراحة، أجدد في سلطنة الميل إلى الاهتمام بصحتها وجمالها وألعاها وحماماتها. نبذل أقصى الجهد في العناية بسري وتربيته على أحسن المبادئ وأقوم الأخلاق (٢) نؤلف أنا وأشيل وفرج [فرج الله] وسطاً جميلاً، فتجد سلطنة من عفيفة وأختي أشيل خير صديقات (٣) أجد مجالاً أوسع لبذل الهمة واستفراغ الجهد أكب على درس والمطالعة والكتابة والخطابة، وأنا على ثقة أني أنال مقاماً رفيعاً في عالم الأدب. (٤) أشعر أني أكون أقدر على خدمة نزعاتي الوطنية، لأن مصر ستكون دماغ البلاد العربية المفكر ومبعث آمالها ومنبتق أنوار حياتها، إلى غير ذلك من الاعتبارات.... انقسم الناس في هذه البلاد في السياسة على آراء ومذاهب مختلفة، فمنهم من يرى إلحاق فلسطين بمصر، وهم قسمان: قسم يقصد خدمة أغراض الأمة الإنكليزية لا خدمة فلسطين، ومنهم من يعتقد أن فلسطين لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها لتفشي الأمية فيها وانقسام البلاد إلى أحزاب مختلفة، فلو تركوا لأنفسهم لأصبحت البلاد عش الفتن والثورات، وضاعت الحقوق وساء المصير فأروا أن يطلبوا إلحاقها بمصر، أولاً لما بينهما من الجامعة العربية (٢) تكثراً بالمصريين أمام سيل المهاجرة الصهيونية الجارف (٣) لأن في مصر حكومة منظمة ومجلس تشريع (٤) لأن مصر راقية وغنية فتستفيد فلسطين من رقي مصر وغناها. بدلاً

من أن يشتري الصهيونيون أراضي فلسطين الواسعة المهملة يشتريها أغنياء مصر، والفلسطيني والمصري إخوان، إلى غير ذلك من الاعتبارات (5) إذا لم يمكن تأليف الجامعة العربية اليوم، فعلى الأقل تكوين جامعة من مصر وفلسطين قوية راقية بدلاً من أن تتجزأ البلاد إلى مقاطعات صغيرة ضعيفة تحت حكم أجنبي مختلف (6) أن مصر تمشي إلى استقلالها التام سنة بعد سنة فتشترك فلسطين معها في هذا المصير (7) وإذا لم يكن لا هذا ولا ذلك، أي إذا خشيينا من ضياع استقلال مصر وهي قسم كبير من الجامعة العربية فليكن مصير فلسطين مثلها، إذا ذهب الكثير فلا أسف على الصغير القليل، وعلى كل حال، فذهاب فلسطين إلى ما تذهب إليه مصر خير من أن تصبح وطناً قومياً لليهود، لأن خروج الانكليز من مصر مأمول وأما خروج اليهود من فلسطين بعد أن يستوطنوها ويتمكنوا فيها فمستحيل... ومنهم من يرى إلحاق فلسطين بسوريا وهم قسمان: المسيحيون والفريق الأكبر منهم كاثوليك، لا يقصدون بذلك مصلحة فلسطين بل مصلحة فرنسا لأنهم يقدررون أن سوريا ستكون لفرنسا، والقسم الثاني المسلمون لأنهم يرجون أن تكون سوريا عربية. إلحاق فلسطين بمصر أو بسوريا على رأي الفريق الأكبر من المسلمين خير من استقلالها بنفسها، لأنها لم تصر إلى حكم أجنبي، لأنها لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها، صارت وطناً قومياً لليهود، ولأنها إذا كانت للفلسطينيين فاليهود فلسطينيون... ومنهم من يرى أن تكون فلسطين للفلسطينيين بشرط أن تمنع مهاجرة اليهود إليها، وهذا الفريق يرى أن تكوين الجامعة العربية الآن بعيد المنال، وهناك فريق يخشى من إلحاق فلسطين بالجامعة العربية لتلا تصبح تابعة للحجاز أو لسوريا فيضيع استقلالها الشخصي ومنهم من يرى أن تكون فلسطين للجامعة العربية.. إذا تألفت الجمعية الفلسطينية غداً وقع النزاع بين هذه المذاهب المختلفة، والله أعلم بمصير الأمور.. فإني [أود] أن أذكر أنه قد تألف حزب جديد في مصر، تحت رئاسة ميشيل بك لطف الله، ومن أعضائه عبد الرحمن شاهبندر، ورفيق العظم ورشيد رضى، وغيرهم، وهو يرى إلى ضم فلسطين إلى سوريا، وأن يكون استقلالهما تحت حماية جمعية الأمم.

في معنى المدرسة الحديثة

الأحد ١٩ ك ٢ غ سنة ١٩١٩ م

جاء الطبيب توفيق حداد وحقن سرياً تحت الجلد بالكينا، وقال أن نوقف الحقن الآن، ونكتفي بالدواء لأربعة أو خمسة أيام، فإذا عاودته الحمى عدنا إلى الحقن.. أرسل إلي مدير المعارف، المجاور تدمن، أنه ينتظرن في بيته (بيت الدكتور سبور) الساعة الثانية بعد الظهر. دبر لي ثلاثة صفوف، كل صف مؤلف من خمسة من الضباط، الواحد في إدارة العدلية في العمارة الروسية، والآخران في العمارة الألمانية على جبل الزيتون، ورسم كل صف في الشهر ثلاث ليرات تدفع سلفاً. ثم تكلمنا عن المدارس، فسألني عن نوع المدارس التي نحتاج إليها البلاد، فقلت له: إن المدارس التي نحتاج إليها مثل المدارس في أوروبا: بساتين أطفال فمدارس ابتدائية، فمدارس ثانوية، بشرط أن تكون مدارس حقيقية لا بالاسم فقط، كما كان عندنا قبل الحرب، وأن نختار لها المعلمين والمعلمات الأكفياة المقتدرين لا أن تكون المدارس مأوى عجزة خاملين كما كانت على عهد تركيا، وأن يكون التعليم فيها مجرداً من

كل تأثير ديني أو جنسي أو سياسي، أي: يجب أن تكون المدارس أمينة للعلم، وإذا لم يكن بدّ من التعليم الديني فليعلّم كل تلميذ أصول مذهبه، بشرط أن نختار أساتذة الدين من خيرة الناس وأفاضلهم لا أن نتركهم وشأنهم، لئلا يكون تعليمهم عبارة عن سخافات تضلل العقول، وتفسد العقائد الوطنية وتنشئ تعصباً ذمياً، وتولد في النفوس كره المدنية واحتقار المذاهب العلمية. على أن كل ذلك أمر ثانوي بالنسبة إلى روح المدرسة. إننا نحتاج إلى مدارس تثب في التلاميذ روح الحرية والإباء والاستقلال والشجاعة والصدق، إلى غير ذلك من المبادئ التي تنهض بالأمة وهدية خمولها فتفض عنها ثوب العبودية الذي لبسته أجيالاً طوالاً، وهنا ذكرت المدرسة الدستورية والمبادئ التي راعيناها فيها، فقلت له: امتازت مدرستي بمزايا عديدة: (١) جمعت بين التلاميذ على اختلاف المذاهب والنحل، وهذه أول مرة في تاريخ بلادنا اجتمع أبناء المذاهب المختلفة من مدرسة واحدة، على مقاعد واحدة بدون تعرض لمذاهبهم الدينية. (٢) المبدأ الذي قامت عليه إعزاز التلميذ لا إذلاله، تكبير نفسه لا تصغيرها، إثناء عواطفه وأمياله وتهذيبها لا محاربتها أو إهمالها، إطلاق حريته لا تقييدها. ولذلك كان من أهم شروطها أن لا قصاص فيها ولا جوائز ولا علامات، لأن للقصاص والجوائز والعلامات تأثيراً سيئاً على نفس التلميذ وعواطفه وأخلاقه، فضلاً عن إمكان إساءة استعمالها. (٣) التعليم فيها كان على أحدث الأساليب، فكان المقصود من التعليم توسيع المدارك وتقوية العقل لا حشوه بعلوم الأولين والآخرين، فيمتلئ ولكن يبقى صغيراً. (٤) لا فروض بيتية. فلم نكن نجيز للتلميذ أن يحمل أوراقه وكتبه إلى البيت لأسباب عديدة: (١) لأن أكثر التلاميذ لا يجدون في بيوتهم طاولات أو زاوية يعتزلون فيها. (٢) لئلا يتداخل الوالدون في تعليمهم ومساعدتهم في أعمالهم، وأكثرهم لا يعرفون كيف يعلمون أولادهم أو يساعدهم، فرمما دفعتمهم غيرتهم إلى إرهاب أولادهم وإسهارهم أكثر من اللازم، بل ربما جروا في تعليمهم على طرق لا توافق طرق المدرسة، فتكون النتيجة أنهم يضرّونهم بدلاً من أن ينفعوهم، وقد يتعوّد التلاميذ أن يعتمدوا على والديهم بدلاً من الاعتماد على أنفسهم. (٣) ليكون البيت محل راحة وسرور للتلاميذ لا محل شغل، فكما أن الآباء حين يرجعون إلى البيت يرجعون ليرتاحوا، كذلك الأولاد يجب أن يرتاحوا، لا أن يشتغلوا. وقد تعطي التلميذ كتاباً يفرح به، فإذا أخذه إلى البيت قلبه مع والديه فتذهب لذته به، ولكن إذا بقي في المدرسة كان عنده دائماً جديداً، وهذا أدعى للذته، إلى غير ذلك من الأسباب. (٤) اختارت المدرسة معلميه من الشبان المملوئين حياة ونشاطاً وإخلاصاً، واشترطت عليهم أن يتأنقوا في ثيابهم، ويحلّقوا كل يوم ويشتركوا مع التلاميذ في ألعابهم، وقد وضعت كل أستاذ حيث يستطيع أن يفيد، وكل تلميذ حيث يستطيع أن يستفيد. (٥) اختارت محلاً مستوفياً شرائط الصحة، تحيط به أرض واسعة للعب. (٦) اهتمت بالألعاب الرياضية والحركات العسكرية، وقد كلّفت أحد الضباط للقيام بذلك، بل جربت أن تدخل المصارعة والملاكمة واستعمال السلاح و السباحة. إلخ. (٧) ألفت جمعية للقوة. (٨) أسست جمعية للصفوف العالية في المدرسة، كانت تدعو إليها الخواجات والسيدات ليتعرّف التلامذة بآداب الاجتماع، وكلفتهم بإنشاء جريدة مدرسية وزعت أبوابها على لجان منهم. (٩) كانت تختار من أدبيات اللغة ما يثير في نفوسهم الحماسة، ويوسع آمالهم ويكبر نفوسهم ويحببهم بالحياة، لا الأدبيات التي تخدر الحواس، وتسفل الأهواء وتسمّل الشعور وتثبط العزائم، وتولد اليأس والخمول، وتزهّد بالحياة. (١٠) كانت تكثر من السياحات والخروج إلى الطبيعة، أما السياحات فللتعرّف بالبلاد ودرس

آثارها، وأما الخروج إلى الحقول والتصعيد في الجبال، فلاستنشق الهواء النقي الطلق، واكتساب الصحة والنشاط، وإحياء عاطفة السرور ومحبة الطبيعة، بل كانت تخرجهم في أيام الثلج والبرد القارس لتولد في نفوسهم (الإقدام) . (١١) كانت تعنى بالموسيقى والأناشيد الحماسية والوطنية، إلى غير ذلك من المزايا التي كان لها تأثير عجيب على التلاميذ في أجسامهم وعقولهم ونفوسهم وأخلاقهم، فلم يكن يرى في المدرسة تلميذ مسترخي الجسم جباناً كذاباً حامل العقل قصير الإدراك وسخاً دينياً... هذا ما أقصده بروح المدرسة... وإذا سمحت لي، قدمت لك نصيحة أن تؤسس هيئة للمعارف من أهل البلاد، ممن توفرت فيهم الخبرة والوطنية والخبرة، تكون لهم صلاحية واسعة على شكل الهيئة التي ألفتها الحكومة السابقة قبل الحرب، فارتاح إلى هذا الفكر...

قال لي: إنه يشتغل بوضع برنامج للدروس، وأراني برنامج الدروس في المدارس المصرية، فقلت له: لست أكتمك أن ليس لمدارس مصر أقل اعتبار عندنا، لا في دروسها ولا كتبها ولا بروغرامها ولا روحها، بل إن مدارسنا على علاقتها كانت أرقى من مدارس مصر، فإذا أردنا ترقية المعارف في هذه البلاد، فلنأخذ عن أوروبا رأياً، وأما الكتب المدرسية للغة العربية فضعها نحن من عندنا، ولست أظن ألا أننا نستطيع أن نستوفي الشروط الفنية فيها، أكثر من أولئك الذين يتطفلون على وضع الكتب المدرسية في مصر.. ثم سألني: لست أدري إن كنت تقبل شغلاً في الحكومة الآن، فقلت: لا أقبل شغلاً الآن، أما إذا أسستم هيئة للمعارف، فإني أحب أن أكون فيها. فعدنا إلى حيث هذه الهيئة، فقلت له: بلغني أنكم أسستم هيئة من أعضائها بشارة حبيب وخليل أفندي النشاشيبي وغيرهما، ولعمري لست أدري ماذا يستطيع أمثال هؤلاء أن يشتغلوا للمعارف... إذا كانت وظيفة هذه الهيئة الاهتمام بمعارف فلسطين عموماً، فيجب أن تكون مؤلفة من فلسطين لا من القدس وحدها، إلا إذا أحسنتم اختيارها من أبناء القدس، وبدون هذه الهيئة لا تستطيع إدارة المعارف أن تكتسب ثقة الأهالي. ثم قال: إن الذي يهمني الآن ويقلقني قلة المعلمين القانونيين، فقلت له: إذا لم تستطيعوا أن تجدوا المعلمين الأكفاء والمقتدرين، فلا أقل من أن يكون في كل مدرسة أستاذ أو استاذان مقتدران يكلفان بتدريب بقية المعلمين الذين معهم، وإذا رفعتم شأن المعلمين أقبل المقتدرون على اتخاذ التعليم مهنتهم، وإلا فلا يقبل عليها إلا العاجزون الخاملون الذين لا يصلحون لشيء، ثم قال: متى انتهيت من وضع برنامج للدروس عرضتها عليك، فقلت له: أقبل ذلك بسرور. ثم ودّعته على أمل أن يعود إلى هذه الأبحاث في فرصة أخرى.. كتبت رسالة إلى أشيل [صيقلي] خلاصتها أي سأترتّب قليلاً في القدس، ريثما تملك سلطنة وسريّ الصحة التامة، وريثما أدبّر نفسي فأحضر إلى مصر إن شاء الله. بعد الظهر زرت النادي العربي وكان هناك بعض أعضائه وأدباء غيرهم، وكان في النية أن نزور عارف باشا الداوودي، فذهبت أنا والحاج أمين أفندي الحسيني والدكتور [زكي] أبو سعود، فلم نجده.

السياسة القديمة والسياسة الجديدة

اللاثين ٢٠ ك ٢ غ سنة ١٩١٩ م

أخذت فكرة انضمام فلسطين إلى سوريا تنتشر وتتمكّن. يقولون: إن فلسطين وسوريا اشتركتا في مصائب

كثيرة قبل اليوم، وفي التطلع إلى الحرية والاستقلال معاً، فيجب أن تشاركنا الآن في مصرهما، ولا يجوز بوجه من الوجوه بزّ أحدهما عن الأخرى، ربما كان ذاك المصير. وأخذت فكرة فلسطين للفلسطينيين واستقلالها بنفسها تتفكّر بل اشتد الميل إلى معاكسة هذه الفكرة.. يظهر من قرائن مختلفة لا يتسع الوقت لبيانها أن الحكومة الانكليزية تحاول تكوين جامعة عربية كبيرة قوية لتحالفها، أو لتكون في يدها والله أعلم... ابتدأت اليوم دروسي مع الصف الاول من رجال العدلية الانكليز وهم خمسة، ثم ذهبت فعملت كبتن بنت، وفي المساء ذهبت لأعلم مس ردلر، رئيسة مدرسة البنات، فلم أجدّها هناك، بل وجدت ورقة منها تقول إنها تأسف أنها لا تستطيع أن تأخذ درساً هذه الليلة، لأنها مشغولة جداً، وتطلب إليّ أن أجيّ مساء يوم الأربعاء... التقيت وأنا راجع بالحاج أمين أفندي الحسيني، فمشينا معاً نتحدث في الأمور العمومية قال: أنا أكره السياسة، ولكن لا أرى بداً من الاشتغال بها الآن، فقلت له، إذا كان المقصود من السياسة البحث في حرية البلاد وسعادتها وتوفير أسباب تقدّمها وارتقائها، فيجب على كل واحد أن يكون سياسياً، وأما إذا كانت السياسة مراوغة ودهاء وخدمة أغراض ومصالح شخصية، فهذه السياسة مكروهة ممقوتة... إن السياسة القديمة التي كانت ترمي إلى استعباد الناس، وامتصاص دمهم واتخاذهم آلات لخدمة ذوي التيجان، أو أرباب الأموال أو أفراد قليلين، واعتبار البلاد والناس ملكاً لهم، يتصرّفون به كما يشاؤون، إن هذه السياسة يجب أن تهدم وتبنى السياسة الجديدة على تحرير الأمم واستقلالها وإطلاق الحرية لها، أن تعيش كما تريد، إن اليوم الذي يستطيع أن يقول فيه الإنسان أنا كائن حرّ أملك نفسي وبلادي، وليس لأحد سلطة عليّ لهو أسعد أيام البشر. إن العالم كله يتطلع إلى هذه السياسة، سواء فيه الانكليزي والأميري والفرنساوي والألماني والإيطالي والمصري والسوري والفلسطيني والهندي والزنجي، فكلّهم ليسوا إلا عبيداً لحكوماتهم أو ذوي النفوذ فيهم. إن الانكليزي يحتاج إلى الحرية مثل الهندي والمصري، والفرنساوي يحتاج إليها مثل المراكشي. ستكون الحروب في المستقبل ثورات داخلية تحرّر فيها الأمم جمعاء من تحكم الأفراد القليلين من ذوي النفوذ. وإذا كنا نكره شيئاً، فيجب أن نكره هذا النفوذ سواء كان داخلياً أو خارجياً. لا تستطيع أمة أن تقول إنها حرة إذا خلصت من النفوذ الأجنبي، ولكن بقيت ترسف في قيود من النفوذ الداخلي... ربما ظنّ البعض أن أوروبا مهد الحرية، ولكن من أنعم النظر رأى أن أوروبا هي مهد العبودية. وأن هذه المدنية أو القوة العظيمة لم تقم إلا على استعباد الشعوب الأوروبية. إن العامل في أوروبا ليس إلا عبداً بل أخط من العبد، بل أخط من الحيوانات.. نقرأ أن منجماً انفجر وتهدم على مئتين أو ثلاث مئة عامل فنظن أن الناس يعدلون عن الاشتغال في المناجم بعد هذه الكارثة ولو ماتوا جوعاً، ولكن لا نلبث أن نرى عمالاً آخرين جاؤوا وأخذوا محل أولئك الذين ماتوا قبل أن يدفنوا، نرى وقادي النار في البواخر فلا نظن أنهم من البشر، يشتغلون في أعماق البواخر، أمام مواقد النار الساعات الطوال عراة الأجسام، وقد صبغوا بالسواد والزيوت لا يستنشقون إلا ذرات الفحم وهباء الدخان، ومع ذلك لا ينالون إلا درهيمات قليلة، على حين ترى صاحب الباخرة يعيش في القصور الفخيمة منتفخ الجسم شعباً ورياً، فتظن أنه إذا مات أولئك الوقادون عزّ على صاحب الباخرة أن يجد غيرهم، ولكن ما أكثر الذين يطلبون أن يكونوا وقادين في أوروبا

صاغرين. ترى سؤاقي السكك الحديدية والترامات يشتغلون ليلهم ونهارهم صفر الوجوه مهزولي الأجسام مضطربي الأعصاب، مما يفضي بأكثرهم إلى الجنون، فتظن أن غيرهم سيعتبرون بهم، ولا يقبلون على هذا العمل، ولكن يكفي أن يعلن أصحاب السكك الحديدية والترامات أنهم يحتاجون إلى عمّال، حتى يتهافت على الطلب ألوف. ترى مستخدمي المصارف والمحال التجارية يشتغلون ليلهم ونهارهم يجهدون أعصابهم وأدمغتهم لئلا تبدر منهم غلطة أو يقعوا في سهو، أو يبدو منهم أقل تهاون، ولا ينالون إلا النزر من الأجر، فتظن أن غيرهم يزهدون في هذا العمل، ولكن ما أكثر الذين يراجعون هذه المحال في طلب شغل. ولم يقتصر الأمر على الرجال، بل اشتركت فيه النساء والأولاد. علام كل هذا؟ كل هذا في خدمة ذوي النفوذ السياسي أو المالي. لا ترى مثل هذا في الشرق، وما أسعد الشرق إذا ترك لنفسه، يعيش على طرقة ومبادئه المختصة به. ولكن حكومات أوروبا لم تكتف باستعباد أممها، حتى طمعت أن تستعبد غيرهم، نقول لهم: اتركونا وشأننا. يقولون: لا تستطيعون أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم. قد تستطيع حكوماتكم أن تحكم البلاد وتسوس العباد بعضا من حديد، ولكنها لا تستطيع أن تجعل الشرق سعيداً. وإذا كنا لا نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا لأسباب عديدة، أهمها تداخلكم من حيث ندري ولا ندري في شؤوننا، فدعونا نختار الحكومة التي نريدها لتتولى أمورنا لأجل معين، فإذا أحسنت الإدارة عقدنا معها إتفاقاً لأجل آخر، وإذا لم تحسن الإدارة كان لنا الحق أن نقول لها: أتركينا ولك الأجر والثواب. ولكن لا نعتقد اتفاقاً مع إحداكن إلا قالت لنا في آخر العهد لا أترككم لأنكم أنتم وبلادكم ملك لي. إذا كانت العاطفة الأوروبية تستهجن الاسترقاق بل أثارت حروباً داخلية لمنعه وإطلاق الحرية للعبيد الأرقاء، لأنها تعتبرهم مخلوقات بشرية لها الحق المطلق أن تتمتع بالحرية التي يتمتع بها سائر البشر، فما لكم تجيزون استرقاقنا؟ نحن بشر مثلكم. إذا لم تنجل هذه الحرب عن إطلاق الحرية للبشر، فما أخط الشر، بل ما أخط أوروبا والسلام.

الحرية بين الدين والسلطة

الأربعاء ٢٢ ك ٢ غ سنة ١٩١٩ م

نشأ في إيطاليا مهد الكتلكة، قبل بضع سنوات حزب جديد اصلاحي، غرضه ادخال اصلاحات جديدة على الكنيسة الكاثوليكية، وبث الحياة فيها، فقام عليه الكاثوليك القدماء وجماعة المعطلين، أما الكاثوليك القدماء فإنهم اعتبروا تلك الاصلاحات بدعاً في الكنيسة فحاربوها، وأما المعطلون فقالوا: إنكم باصلاحاتكم هذه تقوون الكتلكة وتجددون شبابها بعد أن ألم بها الهرم وأشرف بها على الموت فتخلص الإنسانية من سخافاتها واضاليلها وتفك العقول والضمائر من قيودها الثقيلة، فباصلاحاتكم هذه تؤيدون مبادئها السخيفة لتعيش زماناً أطول.. وهذا حال الحكومة الانكليزية في تركيا، فعبيد الحكومات القديمة يعتبرونها بدعة ويستوحشون منها، وفتة المنورين الأحرار الذين كانوا يتوقعون بموت الحكومة التركية خلاص البشر من ضغط الحكومات، يرون أن الأمة الانكليزية الحرة الراقية تعمل على تجديد عهد ذلك

النير الثقيل، الذي كان البشر ولا يزالون يثنون تحته. الكنيسة سلطة والحكومة سلطة وكلتاها مبنيتان على استعباد الناس وإذلالهم والتحكم فيهم. لا تتحرر الأمم إلا إذا خلصت من النيرين لتتحول الكنائس إلى مننديات علمية أو أدبية تتغذى بها الأرواح والعقول، وإلا فهي كانت ولا تزال معابد يدخلها الناس كالعبيد يسجدون ويركعون ويلثمون الأيدي والأذيال ومواطئ الأقدام.. لم يزل الله في عرف رجال الدين إلهاً مستبداً عصبي المزاج حاد الطبع، يتلذذ بعبودية الناس ومدائح التقريظ وبكاء العجائز والشيوخ، ولم يزل ملائكته كالجواسيس يحصون على الناس أنفاسهم، أو رسل الموت يخطفون الأرواح. ولم يزل رجال الدين يزهّدون الناس بالحياة ويرهبونهم ويفرّعونهم ويحقرونهم، ويفرضون عليهم الفروض الدينية الثقيلة التي يقصد بها إذلالهم، يدخل الواحد المعبد خائفاً متخشعاً مطأطئ الرأس كالعبد الذليل، ثم يقف إلى جانب لا يجسر أن يرفع رأسه أو يتنفّس، ثم يأخذ بالركوع والقيام والسجود، ثم يأخذ في سكب نفسه وإفراغ عواطفه، بل يقرّع نفسه بنفسه على خطايا لا يعرفها ولا يشعر بها، ثم يجعل يستغفر، وقد يقرع صدره ويبيكي ولا يخرج من المعبد إلا وقد تلاشت نفسه وتخدّرت حواسه وصغرت همته وشلت أعصابه.. كيف تستطيع الأمم أن تعيش وتسمو إلى الأعلى وتنزع إلى التقدّم والتشبّث بالحياة، وهذا تأثير الدين فيها؟.. وكذلك إذا دخل الواحد إلى المحاكم أو وقف أمام ذوي السلطة المالية أو السياسية، فإنه يقف موقف العبد إلى سيده. إذا ذكر الامبراطور في روسيا نزاع الروسي قبعته ووقف وقفة احترام، بل وقفة العبودية. إذا أنشد النشيد الوطني في بلاد الانكليز وقف الناس. إذا مرّ موكب الأمير في طريق وقف الناس يعظمونه، وأعلنوا عبوديتهم بالهتاف: ليحيى الأمير. إذا دخل الناس المعابد، فقبل أن يستغفروا ربهم أو يشكروه، يدعون لرئيسهم الديني ثم لرئيسهم الزمني إعلاناً لعبوديتهم، إذا دخلوا مجلس الرئيس الديني أو مجلس الأمير حنوا الرؤوس وقبلوا الأذيال. ليست الأديان والحكومات إلا وسائل لاستعباد الناس، ما صدّقنا أن خلصنا من الحكومة التركية حتى جاءت الحكومة الانكليزية، تقول: ليكن لكم حكومة أيها الناس. لا نريد حكومة لا منا ولا منكم والسلام.

ذهبت في الساعة الثانية بعد الظهر إلى العمارة الروسية وعلمت صفي، ثم ذهبت في المساء فعلمت مس ردلر، ثم ذهبت لأعلم الماجور ريتشموند فوجدته مريضاً.

في المسألة الوطنية

الأربعاء ٢٩ ك ٢ غ سنة ١٩١٩ م

زارني يوسف العيسى، فقال: قررنا في جلسة أمس أن نجعل اسم فلسطين سوريا الجنوبية، فسرتني ذلك لأنه يؤذن بعلاقة فلسطين بسوريا، فكأنه إعلان لمذهب جديد يعتنقه الرأي العام، وكأنه إبطال لذلك المذهب أن فلسطين للفلسطينيين.

بعد الظهر ذهبت فعلمت صف القضاة في العمارة الروسية، فدفع كل واحد ستين غرشاً، ما عدا واحد

منهم أجل الدفع إلى المرة القادمة.

جاء بالأمس الياس طرزي، وقد سمعت أن نصري فيعاني في القدس فسرت كثيراً، إذ أشيع قبل اليوم حين كنت في مصر أنه مات فاغتمت كثيراً. بعد الدرس رجعت إلى البيت، ولم ألبث حتى غصّ ديواني بالمجتمعين: الحاج أمين الحسيني وأبو الفضل وجودت القندوس، وعزيز الخالدي ومحمد يوسف الخطيب وعمر الزعبي وعبد الصمد العلمي، فقلت لهم "أستري انتباهكم واهتمامكم إلى ثلاثة أمور:

(١) هذه الأيام هي أهم أيام فلسطين التاريخية. إذا جاءت نوبة الانتخاب في أمريكا الشمالية أصبحت البلاد كالبركان الهائج، تعطلت الأشغال وتوقفت كل حركة ووقعت البلاد في أزمة مالية شديدة تتكرر عند كل انتخاب، لأن كل واحد ينصرف إلى الاهتمام بأمر الانتخاب، وأن مسألة فلسطين اليوم لهي أهم من مسألة الانتخاب في أمريكا، ولذلك يجب أن نغتنم الفرصة فنهز الأمة هزاً عنيفاً لعلها تستيقظ من سباتها الذي استغرق أجيالاً طويلاً، ونعالج العاطفة الوطنية فيها لعلها تحيا بعد أن كادت تجهز عليها الأيام، ونعمل على جمع الكلمة وتوحيد الآراء وسحق التقاليد البالية، وإزالة الحزازات القديمة. يجب أن نجدد شباب الأمة ونبعث آمالها ونشدّد عزائمها وننوّر بصائرنا، يجب أن نخلق في صدر كل واحد من هذه الأمة الثقة بنفسه أولاً، وثقة الواحد بالآخر ثانياً؛ يجب أن نحدث دويماً في كل محل في البيوت والطرق وسائر الأندية والمجمعات؛ يجب أن نعقد الاجتماعات المتوالية إلى الساعة الثانية أو الثالثة بعد نصف الليل من كل ليلة، إذا اجتمع اثنان فلتكن المسألة الوطنية موضوع حديثهما؛ يجب أن نزعج أعضاء الجمعية العمومية، ولا نترك لهم وقتاً لأن يخلو الواحد بأخيه، يجب أن نخرج إلى حد القحة، يجب أن نستري اهتمام العالم بنا، والخلاصة يجب أن نظهر مظهر الحياة.

(٢) تأسست الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس، وأقامت نفسها ممثلة للرأي العام واتخذت صلاحية واسعة، والرأي العام في غفلة عنها ولم يكن انتخابها قانونياً، وبشرت العمل وسكت عنها. وهناك قرائن كثيرة تدل على إمكان انتخاب وفد إلى مؤتمر الصلح، إما للدفاع عن فلسطين أمام الحركة الصهيونية أو لتعزيز الأمر فيصل أو لعرض مطالب فلسطين، فإذا قرر أمر هذا الانتخاب، فيجب أن يؤخذ فيه الرأي العام، ويدقق فيه كل التدقيق لئلا نقع في الغلطة التي وقعنا فيها يوم انتخاب الجمعية الإسلامية المسيحية.

(٣) إن الحركة الصهيونية وإن تكن في اعتبارنا أمراً ثانوياً، إلا أنه لا يجوز أن نهمل أمرها الآن. اليهود يحاولون أن يقنعوا الرأي العام في أوروبا أنهم يؤلفون الأكتية في فلسطين، وأنهم اتفقوا مع زعماء البلاد في كل أمر، وأنهم أصحاب الحق في فلسطين، ولم يزالوا يشيعون الإشاعات المختلفة افتتاتاً علينا ونحن سكوت، فيجب أن نقابل حركتهم بمثلها. وبعد أن أخذنا وأعطينا في هذه الأمور الثلاثة، قرّ الرأي أن نعقد جمعيات القدس حفلة شاي في لوكندة مرقس لأعضاء الجمعية العمومية، تدعو إليها عدداً كبيراً من أهل القدس، تلقى فيه خطب عديدة، فكلفوني أن أكون خطيباً فاعتذرت، وقلت لهم: أحب أن يكون الخطباء منهم، أحب أن ينشأ بينكم زعيم للبلاد إن شاء الله، وقد عقدوا النية على أن يلازموا أعضاء الجمعية

العمومية في الليل والنهار تنشيطاً لهم واستنهاضاً لهممهم وأن يعقدوا الحفلات العديدة العمومية إحياءً للعاطفة الوطنية وشحذاً للأذهان، ونشراً للعقيدة الوطنية التي هي الجامعة العربية.

كنت قد عقدت النية أن أعزل الناس، ولا أشارك مع أحد في عمل، ولكن الظروف تحاول أن تخرجني من عزلتي، بل مما أذكره هنا بالسرور العظيم أني مع اعتزالي أكاد أصبح زعيم الحركة الوطنية. يكفي أني صاحب الفكرة، [فكرة] الجامعة العربية، التي تكاد تتغلب على كل مذهب آخر، وقد عرف الجميع أنها فكرتي، والخلاصة فقد دخلت المعمعة وأخذني التيار.

في المساء ذهبت لأعلم مس ردلر Ridler فلم أجد لها، فذهبت إلى بيت صديقي الماجور ريتشموند، قلت له: لقد تألفت الأندية الوطنية في كل محل من المدن والقرى، وقد أرسل كل نادٍ من يمثل في الجمعية القومية التي توالي اجتماعاتها الآن في القدس، ومع أني كنت من الساعين في ذلك، إلا أني أخشى أن تكون هذه الحركة مصنوعة، وهذا موكول إلى الأيام. انقسم الناس إلى مذاهب مختلفة، وهنا عدت له المذاهب التي تقدم ذكرها في يوميي هذه، فلترجع في يومية ١٨ ك ٢ غ سنة ١٩١٩م، ثم قلت له أما رأيي الذي ناديت به فهو الجامعة العربية وعددت له فوائد هذا الرأي ومما أذكره بالسرور أنه أصبح الرأي السائد في البلاد، هذا رأينا ولم نقد بهذه الحركة إلا اعتماداً على ثلاثة أمور: (١) مساعدتنا للحلفاء، وعددت له أنواع هذه المساعدة (٢) وعد الحلفاء أنهم إنما خاضوا هذه الحرب لتحرير الأمم الضعيفة، و (٣) اعتماداً على انتشار الفكرة الديمقراطية في أوروبا وكثرة أنصارها. إلا أن هناك عثرات كثيرة في طريقنا، منها عثرات داخلية، أهمها الجبن والجهل وتفريق الكلمة والأغراض الشخصية، ومنها عثرات خارجية أهمها مصالح أوروبا والحركة الصهيونية. والأمل أن نتوفق بإزالة هذه العثرات، وتذليل ما يعترضنا من العقبات، ثم قصصت عليه بيني وبينه، ما دار بيني وبين الكولونيل ووترس تيلر، فارتاح إلى كلامي وشجعني على العمل.

في قوة اللغة العربية

السبت في ٨ شباط غ سنة ١٩١٩ م

فاتني أن أذكر في يومية أمس، أن حداد بك مدير الأمن في دمشق قد جاء منذ يومين إلى القدس، فأحب أن يجتمع بالبطريك والجمعية الأرثوذكسية، وقال لهم إنه لم يعارض في رجوع البطريك في أول الأمر، إلا لأنه كان مأموراً بذلك، وأما الآن فإنه يقف إلى جانب الملة ويطلب بحقوقها. عذر أقبح من ذنب. ثم أحب أن يجتمع بي فأرسل إلي بواسطة حنا اسطفان أو أوافيه إلى دار الحكومة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. فكتبت إلى حنا رسالة، قلت له فيها: إذا أحب حداد بك أن يراني فإني في بيتي من الساعة العاشرة إلى الظهر كل يوم. يظن حداد بك أني طوع إشارته يأمر فأطيع، تعاليت عن ذلك علواً كبيراً.. ذهبت بعد الظهر لأعلم صفي في العمارة الألمانية في جبل الزيتون، فلم أدرك الأوتوموبيل فذهبت ماشياً، ثم جئت إلى بيت الكولونيل ووترس تيلر فعلمته، وبعد الدرس جعلنا نتحدث في مواضيع مختلفة، من

جملتها أي قابلت بين الأمة العربية والأمة الإنكليزية، قلت: إن الأمة العربية بواسطة الإسلام ابتلعت أمماً كثيرة، فانتشرت لغتها وحروفها في كل أمة دخلت الإسلام، والذي ساعد على ذلك أمران: القرآن والحجّ. فكل مسلم يجب أن يقرأ القرآن، أي يجب أن يتعرّب، إذ لا يجوز ترجمة القرآن إلى لغة أخرى، ويجب أن يحجّ، ومعنى الحجّ الرجوع إلى البداوة أو الدخول فيها، فكل من حجّ يجب أن يلبس ثوب البداوة يحلق رأسه وينزع ثيابه ويلتف بإحرام ويهرول ويكشف رأسه للشمس ويرمي الجمار ويُلّتي إلخ. فالقرآن، والحجّ يُعرّبان كل مسلم. ولفهم القرآن يجب التادّب بأداب اللغة العربية والوقوف على دقائقها وأحكامها وأدبياتها وتاريخها، بحيث تحلّ اللغة العربيّة من كل مسلم محل لغته الأولى. والذي ساعد في انتشار اللغة العربية واستدعى الإقبال عليها أمران: إنها لغة جميلة، غنيّة، واسعة، راقية، إذا عدّت اللغات كانت في أعلى مرتبة منها. والثاني اعتقاد أنها لغة الوحي، لغة الله وملائكته، ومن لا يحب أن يتعلّم لغة الله من المؤمنين؟ وقد حاولت اللغة اللاتينية واللغة اليونانية أن تكونا لغة الدين، ولكن لم تجدا في الإنجيل ما يُشير إلى ذلك، فلم تلبثا أن هجرتا ولم تنفعهما أدبيتهما الرّاقية شيئاً. وكانت نتيجة دخول أجناس عديدة في الأمة العربية أن احتشدت قرائح مختلفة أنتجت أدبيات راقية جميلة. فأدبيات اللغة العربية ليست نتاج القريحة العربية، بل هي نتاج قرائح مختلفة، بحيث كادت تكون أدبيات عموميّة تشتمّ منها الأدبيات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية وكل الأمم الإسلاميّة، فهي أحرى أن تكون أدبيات الإسلام لا أدبيات العرب، بل لو ساعدها الحظ لأصبحت لغة عامّة في الدنيا، ولكن أوروبا والنصرانية حولتا مدّها إلى جزر.. ولا يشبه الأمة العربية من الأمم إلا الأمة الإنكليزية، فإنها ابتلعت أمماً مختلفة بفضل الاستعمار كما ابتلعتها تلك بفضل الدين، فكل الأمم التي تدخل إحدى مستعمرات إنكلترا مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغيرها، لا تلبث أن تصبح إنكليزية، فليس في العالم أمة مثل الأمة الإنكليزية في قوة معدتها، وكانت النتيجة أن احتشدت قرائح مختلفة في العالم الإنكليزي، فأدبيات الإنكليز ليست نتاج القريحة الإنكليزية، بل هي نتاج قرائح مختلفة، على حين نرى أن أدبيات كل أمة من أمم العالم عامّة وأوروبا خاصة، محصورة في أمّتها نتاج قريحتها. فأدبيات فرنسا مثلاً نتاج القريحة الفرنسيّة، وأدبيات ألمانيا نتاج القريحة الألمانيّة. الأمة العربية والأمة الإنكليزية من أعجب الأمم، وهيهات أن يتفق لأمة من الأمم ما اتفق لهما... هذا موضوع واسع لذا يحتاج إلى مقالة برأسها، ولعل لي عودة إليها... بعد الدرس دفع لي [الكولونيل ولترس] ثلاث ليرات مصريّة.

* ملاحظة: نحتفظ بالأرقام كما وردت في النص الأصلي من الكتاب.

تحرير: أكرم مسلّم - رام الله

مركز خليل السكاكيني الثقافي، مؤسسة الدراسات المقدسية